في المسألة الفلسطينية :

مشروع التقسيم

للأستاذ فؤاد طرزي

يقول الكولونيل (جولر) في كتابه الذي أصدره عن سوريا عام ١٩٤٥ بصدد فلسطين ما يأتي :

« ولو تحرينا الدقة لوجدنا أن اهتمام بريطانية بفلسطين لم يكن في يوم من الأيام ناشئاً عن رغبة في مساعدة اليهود أو تحقيقا لرسالة المسيح ، بل كان نتيجة مباشرة للمناورات الاستعمارية التي ترمي على الدوام إلى خدمة المصالح البريطانية. ففلسطين تقع بين مصر والشام ، وهي على طريق الهند ، فمن المحال أن تغفل قدرها الحكومة البريطانية . وعلى هذا تخلق مشكلة تشيع الاضطراب فيها طريقة نموذجية لتبرير بقاء قوات مسلحة هناك تحافظ على مصالح الامبراطورية » .

وعلى ضوء هذا التفسير العملي الذي يمرضه خبير بريطاني مطلع ، يمكننا تقدير كل ما تضمه بريطانية من حلول لمشكلة فلسطين . فهي ترمي دوما مصالحها في هذه القضية وتنكر مصالح الطرفين المتنازعين بله المصلحة العالمية أيضا ، وتحاول بكل وسيلة أن تمد من أجل المشكلة وتطيل في عمرها لتحتج بها في بقاء قواتها العسكرية الرابطة هناك تحافظ على مناطق نفوذها في الشرق الأوسط بأسره .

ومشروع التقسيم الأخير الذي اقترحته الدوائر الرسمية البريطانية ، ولوحت به مجلة الأيكونمست اللندنية التي تعبر بصورة غير مباشرة عن آراء ١٠ داوننج ستريت ، والذي أيده السير هربرت موريسن أحد الوزراء البريطانيين المسئولين علنا في مجلس العموم ، نقول إن هذا المشروع ليس إلا شكلا جديدا من أشكال أنصاف الحلول التي اعتادت بريطانية أن تقترحها بين آونة وأخرى لتشغل القوم وتكسب الزمن .

وهذا المشروع هو نفس المشروع الذي اقترحه دولة نوري السعيد في الكتاب الأزرق الذي رفعه عام ١٩٤٣ إلى المستر كيسي وزير الدولة البريطانية في الشرق الأوسط . ويتضمن إنشاء حوزة[1] أو حوزات يهودية مع التمتع بحقوق خاصة — على نحو الحقوق التي كانت ممنوحة للموازنة في لبنان — داخل الدولة الفلسطينية ، أو دولة عربية كبرى تشمل سوريا وشرق الأردن ؛ ولكن السيد نوري السعيد ، كما جاء في مقترحاته ، لا يضمن نجاح فكرة التقسيم إلا إذا طبقت بعد ضم فلسطين إلى دولة عربية كبرى (يقصد سوريا الكبرى) ، لذلك تراه يقول في كتابه المذكور ما يلي بالنص : « ... فإنشاء دولتين أو أكثر مستقلة استقلالا تاما ومتكونة من أقاليم فلسطينية صغيرة يقتضي إنشاء حدود مصطنعة متعددة مع إحداث جيوب يهودية متعددة في الدولة العربية ، ومعنى ذلك إنشاء مجاز دولي واحد على الأقل ويحتمل إنشاء أكثر من مجاز واحد . أما إذا أدمجت فلسطين كلها في دولة سورية واحدة تكون حدود الحوزات اليهودية حدودا إدارية فقط ، وقد تتألف حينئذ المناطق اليهودية من عدة أقضية يتمتع فيها اليهود بحقوق خاصة ، أو أنه يمكن باتفاق يتم بين جميع الفرق تعيين منطقة مجتمعة معينة لليهود تدار إدارة شبه مستقلة . وعلى العرب القاطنين فيها والحالة هذه أن يرضوا بالبقاء تحت هذا الحكم أو أن توجد لهم أرض في مكان آخر » .

والحكومة البريطانية ، في الواقع ، تؤيد هذا المشروع وتضحي في سبيله إذا ما جد الأمر حتى بمصالح اليهود ، لأنها في هذه الدولة الكبرى تستطيع أن تجد لها ثغرة تنفذ منها لتوطيد مركزها في سوريا ولبنان وهما الدولتان اللتان تخلصتا إلى غير رجعة من النفوذ الأجنبي . فبريطانية التي حاولت جاهدة طرد الفرنسيين من الشرق الأدنى تتلهف أن تحل محلهم وتسيطر على جميع سواحل البحر الأبيض المتوسط ، هذا البحر الذي تريده « بحرا انجليزيا » كما أراده موسوليني « بحيرة إيطالية » .

وهذا المشروع أيضا ، كغيره من المشاريع البريطانية ، يدركه الفساد من أوله إلى آخره وتعترضه سلسلة من العقبات التي لا يمكن التغلب عليها .

تخيل أيها القارىء أن أمامك الآن خريطة جغرافية للبلاد

(١) جاء في الكتاب الأزرق أن الحوزة أرض أو منطقة تقرر ضمن دولة أو بلاد تخصص لسكنى شعب خاص فيها .

العربية ، ثم ضع يدك على بقعة صغيرة عليها فى القسم الجنوبى من الشاطىء الشرقى للبحر المتوسط تحيط بها أراض شاسعة من الأراضى العربية المسلمة تبتدىء من مراكش مخترقة تونس وطرابلس ومنحدرة نحو البلاد العربية الأصلية ثم صاعدة إلى شرقى الأردن وسوريا ولبنان والعراق . وهذه البلاد التى طفت بها والتى تحيط البقعة الصغيرة التى تحت اصبعك تشكل مجموعة قوية من البلاد العربية التى يبلغ عدد سكانها حوالى الخمسين مليون نسمة . وعلى هذه البقعة الصغيرة التى تسمى (فلسطين) ، والمحاطة بالعرب من كل جوانبها ، يريدون إنشاء دويلة يهودية مستقلة استقلالا تاما أو استقلالا ذاتيا خارجة عن نطاق الامتداد الجغرافى الذى يحتويها ومنفصلة عن مجموعة البلدان العربية . فهل من المتوقع أن ينجح مشروع كهذا ؟

يقول البريطانيون نعم . ويقول الصهيونيون لا . فهم لا يرضون بهذا الحل التواضع ولا يقبلون بشبه دولة ضيقة المساحة . وإن أهدافهم قد قرروها فى عدة مؤتمرات من مؤتمراتهم : ففى مؤتمر بلتيمور الذى انعقد فى الولايات المتحدة عام ١٩٤٢ طالبوا بهجرة غير محدودة وبترك الحرية لهم فى التوسع داخل فلسطين إلى ما لا نهاية . وفى المؤتمر الصهيونى العالمى الذى انعقد فى لندن فى أيار عام ١٩٤٥ وضعوا قرارين رئيسيين : إنشاء دولة يهودية خالصة فى فلسطين ، وتخويل الوكالة اليهودية كل الصلاحيات الضرورية لجلب أكبر عدد ممكن من المهاجرين . وفى مؤتمر بازل الأخير طالبوا من جديد بكل هذا .

وإذا كان هناك من بين الصهيونيين من يوافق على مشروع التقسيم فإن الجميع يرومون الامتداد والتوسع لا على حساب فلسطين بل على حساب البلدان المجاورة أيضا ، ولا يمنع ذلك قرار تصدره الحكومة البريطانية تعين فيه حدود الدولة العربية وحدود الدولة اليهودية ، فقد سبق أن أصدرت عدة قرارات توجتها بألفاظ الشرف البريطانى والضمير البريطانى وختمتها بإقرار برالماناتها ، ولكنها لم توف العهد فى أى قرار من تلك القرارات ، فكانت تصدر اليوم لتنقض غدا . وآخر قراراتها مشروع الكتاب الأبيض الذى أقره مجلس العموم عام ١٩٣٩ . كما أن الهدف الصهيونى أبعد من أن يرضى بشبه دولة صغيرة المساحة ، لأن الفلسفة الصهيونية ليست قائمة على أسس دينية أو إنسانية بل على دوافع استعمارية توسعية ، وهذا ما قرره جون هوب سمبسن الذى ترأس وفدا إلى فلسطين لرفع تقرير عنها حيث قال : « إن الحجة الإنسانية والحجة الدينية تفسدهما الحقيقة المؤسفة وهى أن الهجرة اليهودية اليوم لا تتألف من اليهود الذين يرغبون لأسباب دينية فى العودة إلى أرض صهيون ابتغاء إقامة حياة يهودية لا يشوبها الظلم والاضطهاد ، بل هى مؤلفة من أغلبية من اليهود بعيدة عن التعصب الدينى ومتحمسة بروح الوطنية السياسية ومصممة على تحقيق السيادة فى فلسطين أرض العرب منذ ١٣٠٠ سنة على الأقل » .

والعرب يقولون إن إنشاء دولة يهودية فى فلسطين ، يترك فيها الحكم لليهود وحدهم ، منفصلة عن الاتحاد العربى لا يقبله عرب فلسطين ولا عرب الأقطار العربية ، كما أنه يناقض الوضع الجغرافى القائم ، وهذا ما قرره نخبة من أفاضل العلماء والجغرافيين ، فإن أعظم خبير بجغرافية فلسطين وهو السير جورج آدم سمث قد فطن إلى ذلك وشرحه فى مؤلفه العروف « جغرافية الأراضى المقدسة التاريخية » . فهو يقول فى صفحة ٥٨ من كتابه : « لا يمكن أن تقوم فى فلسطين دولة مستقلة ومنفصلة عما يحيط بها ، فالحيوانات والنباتات فيها تمثل عصورا جيولوجية عديدة ، وهى تتصل بسلالات النبات والحيوان فى أراض كثيرة ، وأن الاتصال الجنسى والدينى والثقافى بينها وبين أجزاء البلاد العربية الأخرى سيسحق كل دولة تقام بالقوة وبالطرق الصناعية » .

وهذا ما يقوله السير جون كارستنك أستاذ علم الآثار القديمة فى جامعة ليفربول ومدير الآثار القديمة فى فلسطين فيما بعد : « مادام أن ليس لفلسطين حدود خاصة من جوانبها الثلاثة فليس من الممكن أن تصبح مهدا لدولة مستقلة لا تتصل بالأمم التى تحيط بها ومقرا لعنصر أجنبى غريب » .

وإقامة دولة مستقلة فى فلسطين غير داخلة فى الجامعة العربية يجر إلى نتائج خطيرة يستطيع الباحث بقليل من التبصر أن يراها واضحة فى الأفق . فالجامعة العربية حركة طبيعية تسير بالبلاد العربية نحو التجمع لا التوزع ونحو الانضمام لا التفرق ، ومتى